جدل الإرهاب والحداثة
كُلفة مضاعفة في المجتمعات المأزومة

م.د. احمد نعمة حسن الصحاف
جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم الاجتماع

المقدمة :

الحداثة مائدة يأخذ منها الإرهابي ما يخدم سلوكه ثم يبصق فيما تبقى من أوانيها . بل أن الإرهاب – الذي نضفي عليه صفة الإسلام أو الأصولية يتصرف – رسميا ونظريا على الأقل – خارج صلاحيات أي دولة.
الباحث

ثمة آراء وأسئلة ، تثير ردود فعل ، ومناقشات ربما وجد فيها البعض عقماً لا طائل من وراءه . إلا أن كثيرين يرون أن تلك المناقشات ضرورية في عالم تتفاقم فيه المخاطر بقدر ما تتسارع فيه خطى العلم والاختراعات التكنولوجية . إنها مسيرة التقدم المادي الذي تلهث وراءه الثقافة ولا تجاريه . ولعلنا ونحن ندرس ظواهر المخاطرة التي صارت أحد موضوعات علم الاجتماع المعاصر لا نستطيع أن نغض النظر عن حقيقة أن المجتمعات الإنسانية ولاسيما الغربية منها أصبحت تواجه مزيداً من المخاطر مع اتساع وتعدد أشكال الظواهر الإرهابية . ولا يبدو أن هناك مجتمع إنساني قد أفلح في الإفلات من المخاطر وما تمليه من خوف وحذر . لقد أصبحت الثقة موضع شك . والحذر واجبا ومقدماً عليها .

العنف ظاهرة متجددة في العديد من المجتمعات ، وهي حين تتفاقم وتزداد وحشية وتتسع من حيث ما تستهدفه من بشر تصبح إرهابا . إن مجموعات مثل الجيش **الجمهوري الأيرلندي** السري وحركة **آيتا** في **الباسك** و**الألوية الحمراء** في ايطاليا وبادر **ماينهوف** في ألمانيا .... الخ هي نبت الحداثة وتقلباتها . ونحن نفترض أن الجماعات الإرهابية التي نصفها أحيانا بالإسلامية ، أو بالأصولية ، هي أيضا تتبنى موقفا معيناً من الحداثة .

أن عالم ما بعد الحرب الباردة ، لم يكن سعيدا . وأن الوعد بنهاية للتاريخ ، سرعان ما بدا خرافة ، ولاسيما مع الدخول إلى القرن الحالي ، بوابة الألف الثالثة ، حيث

أصبح الإرهاب منهجا وعابراً للحدود ، مستخدماً كل مزايا الحداثة (الأسلحة / أجهزة الإعلام المختلفة / أجهزة الاتصالات ..) دون أن يتوقف عن لعنها والبحث عن مساؤها .

في هذه الدراسة الموجزة نحاول أن نستطلع هذه العلاقة – المفارقة مابين الإرهاب – الإسلامي أو الأصولي وهي التسميات والتوصيفات – الخطأ – وبين الحداثة . ملاحظين أنهما معاً ، مفهومان لا ينقصهما الغموض .

المبحث الأول

إطار منهجي واصطلاحي

أولاً : أسئلة ضرورية :

تتلخص المقالة المهمة للفيلسوف الفرنسي **جان بودريار** التي نشرتها لوموند على وقع انهيار برجي التجارة في نيويورك (الحادي عشر من سبتمبر أيلول 2001) في أن الإرهاب رعب مقابل رعب . وأنه كامن في لب الثقافة التي تحاربه . يجب أن نخضع لحقيقة أن نوعاً ما جديدا من الإرهاب قد ولد أخيراً . أنه شكل جديد من الفعل الذي يلعب اللعبة ويتقن قواعدها لكي يزعزع سياقها[1] . يمكن إستخلاص أسئلة مهمة من هذه **الرؤية الديالكتيكية** التي عبر عنها **بودريار** :

- ما هو موقف الإرهاب (الممثل في جماعات القاعدة على وجه الخصوص أو الجماعات الأخرى التي تماثلها) . من الحداثة ؟ ونحتاج للإجابة على هذا السؤال إلى تعريف للإرهاب ، كما نحتاج إلى تعريف للحداثة .
- هل نجح الإرهاب في ألحاق الضرر برموز الحداثة . أم أنه يتكيف لها ويستثمر تسهيلاتها .
- هل شكلت الحداثة بيئة مؤاتية للإرهاب ؟

ثانياً : مفاهيم أساسية :

من المعلوم أن المصطلحات والمفاهيم في سياق الفهم والنظر الذي يبذله الإنسان وفي سياق الصيرورة التاريخية لهذا الكائن عرضه لتغيرات وتقلبات متعددة تمليها ظروف وخصوصيات المرحلة التاريخية مما يجعلها تنأى كثيرا أو قليلا عما أنزلت أو وضعت له أصلاً فيكون ذلك منشأ للخلاف[2] .

1- الحداثة (Modernity)

توافق الباحثون على جعل الحداثة فترة تتماهى مع الحقبة التاريخية التي بدأت في الغرب مع عصر النهضة (القرن الخامس عشر). لقد تميزت هذه المرحلة التاريخية الجديدة بتحولات كبرى أثرت على البنى الاجتماعية (حياة مدنية – ولادة الرأسمالية) وعلى أنماط الحياة وعلى القيم (الفردية ، ظهور الحريات العامة ، المساواة في الحقوق) وعلى الأفكار (بروز الفكر العقلاني ، العلوم) وعلى السياسة (عملية الدمقرطة) . أذن : **العقل . الفرد . التقدم. المساواة . الحرية** : هذه هي الكلمات المفاتيح في الحداثة . ولذلك عد علماء الاجتماع الحداثة كأنقلاب اجتماعي كبير يقوم على التعارض بين مجتمع تقليدي وآخر حديث . ويرى **ماكس فيبر** في عقلنة النشاطات الإنسانية السمة السائدة في الحداثة بعد أن تخلصت من وطأة التقليد لتتبع منطقها الخاص[3] .

يعتقد **الآن تورين أن الحداثة ترسي أسساً لا إجتماعية لأفعال اجتماعية وتفرض خضوع المجتمع لمبادئ أو قيم ليست اجتماعية في حد ذاتها** . على أن وجود الحداثة هو رهن توافر مكونتين إثنتين باعتبارهما شرطا لوجود الحرية والإبداع داخل الأنظمة الاجتماعية . أول هذين المبدأين هو الاعتقاد بالعقل وبالنشاط العقلي . فالعلم والتكنولوجيا والحساب والدقة وتطبيق نتائج العلم على ميادين يكثر تنوعها في حياتنا كل هذه الأمور تشكل مكونات ضرورية للحضارة الحديثة . أما المبدأ الثاني المؤسس للحداثة فهو الاعتراف بحقوق الفرد أي إثبات شمولية تعطي جميع الأفراد الحقوق نفسها كائن ما كانت أوصافهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية[4] اقترح عالم الاجتماع **بيترفاغنز** التمييز بين مرحلتين كبيرتين للحداثة . المرحلة الأولى هي مرحلة الحريات الاقتصادية والسياسية وهي المرحلة التي تقلصت فيها سلطة الملكيات المطلقة أو الكنيسة على المجتمعات . أما المرحلة الثانية في القرن العشرين فتمثل الأزمة التي وقعت فيها الحداثة : الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والأيديولوجية . ويرى بعض العلماء أن هناك (حداثة متأخرة) تتميز ومنذ الستينات بالتحرر من العادات وبفردية جديدة .

الحداثة ليست رديف العولمة . إذ بقدر ما بشّرت الأولى بمبادئ التنوير جاءت العولمة بالرأسمالية المتوحشة و**بالداروينية الاستئصالية** حيث البقاء للأقوى . الحداثة : بشّرت بسيادة العقل والعلم وبشرت بالتقدم . وأنكرت دور الكنيسة والخرافة ، وأكدت على

حقوق الإنسان وعلى النظام الديمقراطي . الحداثة استشراف للغد ، وإيمان بالمستقبل . غير أن للحداثة عثراتها إذ إنها غذّت عقدة العظمة والتمركز الثقافي الغربي ، مما أوجد المبررات غير الإنسانية لاستعمار (الآخر) وسرقة موارده . وفي بيئة الحداثة نشأت الديانات الأرضية – كما أسماها **ماكيفر** – كالماركسية والفاشية والنازية مع اختلاف منطلقاتها .

2- الأزمة (Risis)

الأزمة توقف أو انحراف عن سياقات الانتظام والروتين ويبدو ان لكل من علوم الانسان والمجتمع نظرته التخصصية نحو مفهوم الأزمة . غير ان تاريخ علم الاجتماع بالذات يعكس مخاض التفكير الجدلي ما بين النظام والفوضى . فالنظام تواتر واستمرار فيما الفوضى خلل يتجاوز مستوى الصراعات أحياناً نوعاً من دمار النظام .

تعرف الأزمة : من الناحية الاجتماعية بكونها توقف الاحداث المنظمة والمتوقعة واضطراب العادات والعرف مما يستلزم التغيير السريع لاعادة التوازن ولتكوين عادات جديدة أكثر ملائمة[5]. وليست الازمة في أي حقل اجتماعي مؤثراً على نزاع قد يدمر المجتمع فحسب بل هي أيضاً مدخل الى تجديد الحقل الاجتماعي المتأزم – كالحقل العلمي مثلاً – فالأزمة محطة في مسار وقد تغدو في حال استمرارها مساراً مستقلاً[6]. وإذا توسعنا في التحليل نجد ان الازمات الاجتماعية الكبرى قد تدفع بالمجتمع الى الخطر. ومن المعلوم ان هناك من يميز بيم الخطر وبين المخاطرة . فالمخاطرة كما يرى جدنز الى الخطر المقدر بوعي فيما يتعلق بالاحتمالات المستقبلية وهو واسع الاستعمال في المجتمعات ذات التوجه المستقبلي وقد كانت المخاطرة – كما يذهب جدنز متصلة دائماً بالحداثة . وهي على نوعين مخاطرة خارجية آتية من الخارج أو من ترابت التقاليد والطبيعة ومصطنعة وهي التي وجدها تطوير فالمعرفة[7].

والواقع ان هذه الرؤية قد تنطبق على المجتمعات الصناعية التي أصبحت الانجازات العلمية مصدر تهديد . اما في مجتمعاتنا فان المخاطر قد تنجم عن صراعات ازمات بنيوية تهدد بقاء المجتمع أو قد تنجم عوامل طبيعية (كوارث) ذات تأثيرات حاسمة على البناء الاجتماعي . ان الازمات الناجمة عن الحروب تشكل مخاطر مركبة على السكان وعلى النظم الاجتماعية معاً . فهي تطال رأس المال البشري ورأس المال المادي معاً[8]. ان للارهاب مخاطره الخاصة التي تشكل أزمات انسانية مستمرة تنطوي على مخاطر تتولد تعيد انتاج من خلالها.

3- الإرهاب :

الإرهاب فعل تدميري . وتختزن كلمة (إرهابي) صوراً متعددة من الأفعال تتدرج في خانة الخوف الشديد الذي يصل حد الرعب . ولعل هذه الكلمة صارت اشد ارتباطا بسلوكيات المليشيات والجماعة المسلحة التي تستخدم العنف المنظم ، شديد القسوة ضد المناوئين لها . أقدم تعريف للإرهاب ورد في القاموس الفرنسي عام (1215م) وهو :

(الاستخدام المتعسف للقوة والعمل الموجه ضد خصم أو إرغامه على القيام بعمل ضد أرادته باستخدام القوة والتخويف ضد الآخرين بقصد السيطرة عليهم بواسطة الموت والتدمير أو الإخضاع والهزيمة) [9] .

الإرهاب تعبير متطرف عن الكراهية الشديدة والرغبة في إيذاء الآخر إلى حد إستئصاله أو السيطرة عليه . ولذلك فان بين الإرهاب والعنف دائرة مشاركة واضحة فهما مفردتان متوازيتان مع بعضهما إلى حد يجعل الساحة المشتركة بينهما تؤكد لنا أن العنف يحتوي الإرهاب والإرهاب من صور العنف وأحد أشكاله وكلاهما مُدان دينياً وقانونيا في كل العصور وعلى مدى الأزمان[10] .

ويرى آخرون بأن الإرهاب هو : (العنف المخطط مسبقا لتحقيق أهداف سياسية ولقتل الأبرياء والمدنيين) غير أن كتيب للجيش الأمريكي يعرف الإرهاب بكونه الاستخدام المحسوب للعنف أو للتهديد بالعنف بغية تحقيق أهداف سياسية ، دينية ، أيديولوجية من حيث الجوهر وذلك من خلال التهويل والإكراه أو بث الخوف) وجوهر التعريفين المذكورين هو التركيز على عنصر إستخدام القوة والعنف لتحقيق الأهداف المختلفة كما وأن العنصر الآخر الذي يتفرع من الأول يتمثل بقتل الأبرياء من الناس أما بهدف أبادتهم أو إجبارهم على قبول ما يريدون تحقيقه[11] . ويمكن أن نضيف لما تقدم :

- ❖ أن الإرهاب فعل قصدي ، وليس فعل عابر ، يحدث صدفة .
- ❖ كما أن الإرهاب الذي نتناوله في هذه الدراسة ، هو الوجه السلوكي لمنهج فكري أو أيديولوجيا تنطوي على تفسير وتبرير للفعل .
- ❖ أن الإرهابي يختلف عن المجرم الاعتيادي في كونه لا ينتظر في الغالب – مكافأة مادية – على سلوكه .

المبحث الثاني

أولا : أين يلتقي الإرهاب بالحداثة :

الحداثة تمضي على ساقين : العلم والعقل . والإرهاب يستفيد من منجزات العلم على نحو يفصح عن حقيقة أن الضوابط الدولية التي تنظم استخدام تلك المنجزات ولاسيما التي تؤدي إلى مخاطر ليست فاعلة بدرجة كافية . لكن الفكر الإرهابي ، مغلق ، ودوغمائي ، وغير عقلاني ، لا يؤمن بالحوار ، ولا يحترم الإنسان ككائن كرّمه الله . من هذه النقطة يفترق الإرهاب عن الحداثة .

1- المزايا :

لم يعد الإرهابيون يستخدمون السيوف والخناجر فقط . بل أصبح من الميسور عليهم الحصول على مختلف أنواع الأسلحة . فالشبكات الاقتصادية والشركات الخفية والعلنية توفر كل أنواع الأسلحة ، بل أن دولاً تستورد الأسلحة ، لا تتردد عن جعلها متاحة للإرهابيين .

أن قافلة متخمة بالأسلحة هدفها جبهة النصرة في سوريا ، أو داعش في العراق لابد أن تكون قد جاءت من مكان ما ، ولابد أن طرفاً ما (دولة أو حزبا .. أو ...) قد مَوّل صفقة تلك القافلة لاسيما وأن العولمة ، وهي وليدة الحداثة ، قد نجحت في مصادرة القيمة الرمزية للسيادة التي تمثلها الحدود . يقول **بودريار** : الإرهاب كالفيروس ماثل في كل مكان . هناك حقن عالي متواصل للإرهاب . هو كالظل الملازم لكل نظام من أنظمة السيطرة . أنه في لب الثقافة التي تحاربه . لا يتعلق الأمر إذاً بصراع حضارات ولا بصراع أديان كما يتعدى بكثير الإسلام وأمريكا اللذين تجري المحاولات لحصر النزاع فيهما . إن العولمة المنتصرة تخوض صراعا مع ذاتها . ويلخص **بودريار** الفكرة بالقول أن هؤلاء (ويقصد الإرهابيين) لا يراهنون على موتهم الخاص فقط .. بل تملّكوا أيضا كل أسلحة القوة المسيطرة . المال والمضاربة في البورصة وتكنولوجيا المعلوماتية والطيران والشبكات الإعلامية لقد إكتسبوا كل ما توفره الحداثة والعالمية من غير أن يغيروا الهدف القائم على تدميرها[12] .

العلم الذي أفرزته الحداثة كنتيجة لأعمال العقل والتحرر من الخرافة ، هو ذاته الذي أنتج القنبلة النووية التي ألقيت على **هيروشيما** و **ناغازاكي** وهو الذي أنتج غاز السارين

الذي هدد الإرهابيون بنشره في أنفاق القطارات في طوكيو وهو الذي حذّر الروس من وصوله إلى داعش أو جبهة النصرة ، أو هو الذي حاول الإرهابيون إستخدامه في أنفاق القطارات في لندن . الحداثة مائدة يأخذ منها الإرهابي ما يخدم سلوكه ثم يبصق فيما تبقى من أوانيها . بل أن الإرهاب – الذي نضفي عليه صفة الإسلام أو الأصولية يتصرف – رسميا ونظريا على الأقل – خارج صلاحيات أي دولة ، بل هو فعل يستهدف إسقاط الدولة (في سوريا) مثلا مع أن الدولة ، أموية أو عباسية أو عثمانية كانت هي التي تضفي على الإرهاب رداء الشرعية . وفي عصرنا ، كان لما يسمّى الدولة العميقة في تركيا دوراً في صناعة إرهاب مُعَبر عنها ومُموّل من مواردها إلا أن دولاً أخرى تندد بالإرهاب لكنها تموله بشتى الطرق . بل أن أمريكا التي أعلنت الحرب على الإرهاب في اللحظة التاريخية لانهيار البرجين في نيويورك كانت هي التي صنعت (القاعدة) في أفغانستان .

ماذا يعني ذلك ؟ باختصار : يعني أن الحرب على الإرهاب مخترقه . وأن من يدعّي التنديد به نظريا يقدم له العون واقعيا . والأسلحة ، وتقنيات الأسلحة الكيماوية والنووية هي جزءٌ من بضاعة سوق الحداثة التي توفرها منظومات اقتصادية ترعاها الدول ذاتها . أن النظام العالمي الذي يعلن ويواصل حربه على الإرهاب يوفر هو ذاته فرصاً تعزز سطوة الإرهاب وديمومته .

الجانب الآخر . يتمثل في أجهزة الإعلام ، ولاسيما الفضائيات التي تجعل الفعل الإرهابي حاضراً في كل بيت . مضخّماً . مخيفاً . وكأن الفضائيات تهيئ لذلك الفعل مسرحاً ، يستعرض من خلاله شدة قسوته . واحتقاره للحياة ، ورهانه على الموت . الفضائيات ، تعطي من خلال الصورة تأثيرا مضاعفا للفعل . **ولذلك ، فان صورة برجي التجارة في نيويورك تعادل في قوتها وشدة تأثيرها بيانات كل رؤساء الدول الذين إنتفضوا وهم يشاهدون الطائرات تنقض على البرجين . كما أن صورة الإرهابي الذي شق صدر الجندي السوري وأكل قلبه تتجاوز من حيث الرعب والاشمئزاز والرفض ، فعل دراكيولا مصاص الدماء .**

فالصورة تضخّم الحدث . وتحوله من اللحظة الواقعية المحدودة التي وقع فيها إلى حدث مستمر في الذاكرة . التصوّر ، عبر الإعلام ، يعيد صناعة الواقع ، ويجعل استرداده ممكن . لسببٍ بسيط هو أن للذاكرة زمنها الفاعل خارج دائرة الزمن الفلكي .

أن للإرهاب اليوم قنواته الفضائية وحضوره في مواقع التواصل الاجتماعي . فالحداثة فتحت أبوابها للجميع . فلا فرق بين من يحمل كتاب (التسامح) ومن يحمل كتاب (الحقد والتكفير) . أنها حرية مُدانة لا ينبغي الاطمئنان لها لكنها حقيقة الأمر الواقع الذي جعل من العالم قرية صغيرة لكن طرقها مفتوحة للجميع بما فيهم أولئك المُتشحين بالسواد.

ومزايا العلم الذي قامت على قاعدته العولمة يبدو واضحاً في أجهزة الاتصال ولاسيما الهاتف النقال والانترنت والأجهزة الصغيرة الدقيقة التي تستطيع أن تصوّر وتسجل الكلام.

2- الرفض :

يعتقد **هابرماس** أن الإرهاب هو تأثير صدمة التحديث الذي إنتشر حول العالم بسرعة في حين يرى **داريدا** أنه علامة وعرض لعنصر مرض حقيقي خاص بالحداثة التي تركز دائما على المستقبل[13]. وتمثل أيديولوجية الإرهابيين الذين هاجموا البرجين والبنتاغون في رفض هذا النوع من الحداثة والعلمانية المرتبط
بالعرف الفلسفي مع مفهوم التنوير[14] .

إن جرداً بسيطا لتطبيقات (شرع الله الطالباني) في(أمارة أفغانستان يظهر أن الحركة):

- أوقفت البث التلفزيوني في عموم مناطق الأمارة وحرمت تحت طائلة تطبيق الحد على كل من يحاول التقاط البث التلفزيوني القادم من خارج الأمارة .
- منع المرأة من مزاولة العمل في العديد من مجالات الحياة ومنعها من الاختلاط بالرجال مما جعل النساء الأفغانيات قيد الإقامة الجبرية وقد أدى ذلك إلى إغلاق العديد من مدارس البنات . فالمرأة كما يقول **الملا عمر** خلقت للنكاح فقط .
- فرض حجاب قاس على المرأة إذ يغطيها بغطاء سميك من أعلى رأسها حتى أسفل قدميها مع وجود فتحات صغيرة في هذا الغطاء تسمح بالتنفس فقط .
- فرض إجباري على كل الشباب فوق سن الرابعة عشرة بإطلاق لحاهم وبحلق شواربهم ومن لا يفعل ذلك يضربونه في الشارع ضرباً مُبرّحاً .
- تدمير التماثيل الأثرية التاريخية ليس تماثيل **بوذا** التي أثارت ضجة في العام كله ولكن ألاف أخرى في متاحف أفغانستان[15] .
- الموقف من الديمقراطية يظهر بنوع خاص التقاطع الحاد بين الإرهاب وبين الحداثة التي كانت البيئة التي ولدت فيها الديمقراطية وحقوق الإنسان والحكم الرشيد .. الخ .

ففي مطبوع وزّع في العراق لأحد كبار قادة الإرهاب يصف فيه (الحكومات المرتدة المعاصرة التي تبنّت مذهب الديمقراطية الكُفري وكذلك أنصارها وعلماؤها الذين يفتون حسب أهواء الحكام الطواغيت وهو ما يجعل من جميع هؤلاء (فتنة العصر) . والحال أن "من مقاصد القتال درء فتنة الكفر حيث كان في أرض الله"[16] .

- وبينما تؤكد قيم الحداثة على مبدأ سواسية الناس واحترام حقوقهم – نظريا على الأقل – فان الفكر الإرهابي يقسم الناس إلى مؤمنين وكفره ، ويقسم المجتمعات إلى دار أسلام ودار حرب[*] وهذه الأخيرة تستحق أن تدمر لأنها (دار كفر) . أن هذا التصور يستند إلى فتوى **أبي علي المودودي** حول أوضاع المسلمين في الهند ، وفتوى ابن تيمية حول التتار وخلاصتها أن هناك من يلتزمون بالإسلام جملة ويرضون بإحكامه على وجه التفصيل وهناك الذين آمنوا ببعض الكلام وأعرضوا عن البعض الآخر فالواجب قتالهم حتى يقبلوا الإسلام ولا يعطلوا أحكامه . وهؤلاء فريقان : المرتدون الذين دخلوا الإسلام ثم كفروا ببعض أحكامه وتركوا قسماً من شريعته دخلوا الإسلام بشرط عدم الالتزام بجميع أحكامه . وفي مطبوع لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين عنوانه (لماذا نقاتل ونقاتل من ؟) يوجز الكاتب فتوى ابن تيمية[18] . أن مثل هذا التصنيف للناس يعني أن بعضهم يستحق الموت ببساطه لأنه (كافر) . قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) بشّروا ولا تنفّروا . وفي (بشروا) معنى البشارة والوعد بالخير ولكن في (لا تنفّروا) نجد معنى (النفير) والنفّرة . والإسلام طبقا لشريعته السمحاء استثنى من القتال : الأبرياء والضعفاء والنساء والأطفال والشيوخ فالقتال لمن يقاتل وعلى من يقاتل[19] . بل أن الإرهاب لا يجد حرجاً في تجنيد الأطفال بل أن (يفخخهم) ويحولهم إلى قنابل موقوتة . مع أن أحد أهم مبادئ الحداثة هو حماية الأطفال من كل أشكال العنف ولاسيما تجنيدهم .

الحداثة أطلقت العنان لحقوق المجموعات **الثقافية الفرعية** والأقليات كجزء من مرجعيتها الإنسانية وقد كان لذلك أثره في تفكيك دول . صحيح أن هذا التوجه يمثل انتهاكا لسيادة الدول وسلطانها إلا أنه في الوقت ذاته يعكس حق تلك الأقليات في الحفاظ على هويتها . إن ما يتعرض له الشبك والايزيديين وغيرهما من الأقليات من قتل فردي وجماعي من قبل الإرهابيين يعكس حقيقة التمييز اللاإنساني الذي تقوم عليه مرجعية الإرهاب . ومن المعلوم أن الحرب حتى حين تقع لا تبرر قتل المدنيين ،لأن

الحروب تجري بين جيوش منظمة ولذلك حرصت الأمم المتحدة على استثناء المدنيين وحمايتهم من ويلات الحرب . وجاء مفهوم الأمن الإنساني ليفصل بين ذلك الانقسام بينه وبين الأمن الوطني أو القومي .

- أن أفضل نموذج تمييزي تمارسه جماعات الإرهاب التي تدعي التزامها بالشريعة الإسلامية هو موقفها من المرأة . يقول الدكتور محمد سعد أبو عامود أن تنظيم جماعة الأخوان المسلمين في مصر كان التنظيم الوحيد الذي ضم النساء والفتيات إليه وزوجهن للأعضاء الرجال حتى المتزوجة منهن كان يحق لها الزواج من آخر لأنها بمجرد الانضمام للجماعة تصبح حرة ومحرمة على زوجها الأول لأنه كافر . وقد حرم تنظيم التكفير والهجرة على النساء والرجال (كل ما يأتي من المجتمع الجاهلي الكافر) [20] . ولعل ما سمي بـ(نكاح الجهاد) أو تحويل النساء إلى (مفخخات) أو تهجيرهم مع أسرهن هي
نماذج لهذا التمييز الدموي ضد المرأة .
- تؤكد الحداثة انطلاقا من تصوراتها حول مبادئ حقوق الإنساني على أن العالم متعدد الأصوات وأن الخلافات لا ينبغي أن تحل بالعنف والحرب ولذلك تسمح أجواء الحداثة ونواديها ومنابرها بكل ما يمكن أن يقوله فلان وفلان . وهذا ما جعل الإدارة الأمريكية ، وحكومات الدول الغربية الأخرى كالسويد تغض النظر عن إساءات بالغة وجهت للإسلام ولاسيما في شخص رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أو اشتغال عدد من مراكز البحوث على إثارة الأحقاد ضد الإسلام بوصفه (إرهابي أو يرعى الإرهاب) . إن موضوعة (حرية الرأي) و (حرية وسائل الإعلام) (مع كل ما تنطوي عليه من أخطاء جسيمه إذا إستغلت ضد إطراف مناوئة) ترفض على نحو قاطع من قبل الجماعات الإرهابية فهي ترفض أن يكون للآخر حق في إبداء الرأي الايديولوجيا الإرهابية لا تقر بأنه للآخر رأي . بل هي وحدها تحتكر حق إبداء الرأي . لأنها تحتكر الحقيقة . إن موقف الغرب من الإسلام هو أيضا برر لهذه الحركات ولعل ذلك هو الذي جعل **بودريار** يؤكد على ان هناك (حقن عالمي للإرهاب) .

ان سؤالا مهماً يطرح نفسه : إلى أي حد كان الغرب – بحداثته وبعولمته – هو ذاته سببا في ظهور – أو على الأقل – نمو وتوسع النشاط الإرهابي ؟

لقد كان علماء الاجتماع يتحدثون عن مخاطر ناجمة عن التكنولوجيا والتقدم العلمي ، وأحيانا عن سوء إستخدام بعض هذه الاشكال من التكنولوجيا ومنها تلك التي تؤدي إلى إفرازات غاز أول أوكسيد الكاربون فضلا عن المخاطر النووية وغيرها . اليوم يواجه الغرب مخاطر جديدة مضاعفة تتمثل بالارهاب وتستنزف الكثير من موارده المادية والبشرية . إن ما تعرضت له المصالح الامريكية في نيويورك وفي أفريقيا يؤكد أن الارهاب قد ضاعف من المخاطر التي تتعرض لها المجتمعات الغربية لاسيما وأن بعض الذين قاتلوا ويقاتلون اليوم مع الجماعات الارهابية في العراق وسوريا سوف يعودون الى تلك المجتمعات بوصفهم مواطنين وسوف يتعاملون مع السلطات فيها بوصفها معاديه لاسيما وأنهم تلقوا تدريبا كافيا وخبرة قتالية جيدة .

المبحث الثالث

دور الحداثة في تعزيز المد الإرهابي

أعلن الغرب – وأمريكا بالذات – الحرب على الارهاب . فماذا حدث ؟ إحتلت أمريكا أفغانستان بعد أن زرعت فيه القاعدة(*) وما إن أنهار البرجان حتى أدركت أمريكا أن الخطر قد أصبح على ابوابها فكان إن أعلنت الحرب . واحتلت أفغانستان ثم العراق وكثّفت حضورها في اليمن وفي باكستان ، وأقامت غوانتانامو .. لكنها لم تنجح حتى اليوم في إنهاء القاعدة التي تعاظم نشاطها في المغرب العربي ، وفي افريقيا ، واليمن ، فضلاً عن العراق وسوريا . لماذا حدث ذلك مع كل هذه الشدة في الحرب ضد الارهاب ؟ هل كان لأفكار الحداثة في الغرب دورها اذا تركنا جانبا العامل السياسي الذي شجع أمريكا على أقامة القاعدة في أفغانستان ؟

من المؤكد أن هناك منصفين إقتنعوا بان الإسلام الذي يساء لمبادئه ويتهم بكونه يشجع على الارهاب وعلى إستخدام السيف بدل الحوار هو دين سماوي ولا ينبغي ان يصبح هدفا للكراهية التي يحملها المتعصبون من الديانات يقول **بودريار: لا يتعلق الأمر إذاً لا بصدام حضارات ولا بصدام أديان كما يتعدى بكثير الإسلام وأمريكا اللذين تجري المحاولات لحصر النزاع فيهما لتوليد وهم مجابهة مرئية ووهم حل بالقوة .. الاسلام ليس تجسيد للارهاب** [21] ويقول **بريجنسكي** : على الغرب إن يتفهّم أن المليار مسلم لم يتأثروا بغرب يرونه مبشراً بقيم استهلاكية وفضائل لا أخلاقية وبركات الإلحاد . فرسالة

الغرب – لاسيما أمريكا – مرفوضة لدى كثير من المسلمين . وغير هذا فان محاولة تصوير الاسلام (المتطرف) على أنه التهديد المركزي للغرب – بأعتباره خليفة الشيوعية في تهديدها للغرب – إنما هي محاولة في غاية البساطة .

أن نظرية : إن الإسلام في أغلبه يرفض التعريف الغربي للحداثة فهي قضية أخرى لا تمثل قاعدة صلبة للنظر سياسيا الى الإسلام لأنه عالم متنوع يمتد من غرب أفريقيا السوداء من خلال شمال أفريقيا والشرق الأوسط وإيران ... الخ فان أمريكا إذا سارت على افتراض إن الإسلام مستعد للشروع باستخدام أسلحة نووية فانها ستقع في مخاطرة التورط بنبوءة – عليها تحقيقها بنفسها [22]

ومع ذلك فان جهات دينية وثقافية وفنية في الغرب (أمريكا والدانمارك والسويد وفرنسا..) أعلنت (حرب إساءة) ضد الإسلام ، كان أشدها تلك الصور المسيئة لرسول الله ﷺ أو حرق نسخ من القرآن الكريم ، أو التشريعات ضد الحجاب . الى جانب ذلك فان الغرب الذي يرعى إقتصاد السوق المعولم سمح بتعظيم معدلات الفقر والحرمان ومع فشل الاطاريح القومية والعلمانية في مجتمعات العالم الثالث ، توجهت الانظار الى الماضي ووجد الارهابي إن موته ليس مجانيا بل هو رفض لادانه تسيء الى دينه كما انه في الوقت ذاته يحجز لنفسه مكانا في جنة الله . أن العودة الى الماضي (كبديل فشل برامج الحاضر) يظهر في أماكن أخرى من العالم مثل المكسيك والهند [23]

من جانب آخر فان الأنظمة العربية والإسلامية التي كان لها دورها في ضبط حركة الشارع وفي توجيه العقول فقدت دورها وشاخت ولم تعد قادرة على حماية مصالحها . أصبحت هي ذاتها أرضاً خصبة لنمو الحركات الارهابية المعادية لتلك المصالح[24] فكان لابد من التغيير . لكن ما حدث هو العكس تماماً . ففي مصر تسلق الأخوان على السلطة . وفي سوريا كان للارهاب حضوره على المواقع المتقدمة في الحرب ضد النظام . ولم يختلف الأمر في ليبيا حيث أُغتيل السفير الأمريكي . ومن العراق – ومع اختلاف التجربة – تحدث اليوم مواجهة كبرى بين الارهاب والديمقراطية – وهي أحدى ثمار الحداثة – ويتعرض العراقيون لعمليات قتل جماعي يعكس مبدأ الاستئصال التكفيري للعدد مهما كان عمره أو جنسه أو عمله .. أو .. أنه مجرد عدد (كافر) ويتعاظم العداء ضده حين لا يكون من حملة هوية الارهابي . مع أن الارهاب لا دين له .

إن مما يعزز موقف العقل الجمعي الإسلامي من منتجات الحداثة هو أنها تتعارض مع قيمه . فالفضائيات لا تتردد عن عرض الأفلام الإباحية ومشاهد العُري ، والتشجيع على العنف ، وتفكك الأسرة ، وإشاعة ثقافة المخدرات .. الخ مما هو معروف . أنها حداثة تنطوي هي ذاتها على عملية استلاب لقيم الآخر . أنها برنامج اختراق لثقافة الآخر . وهذا (الآخر) لا يمتلك التسهيلات التكنولوجية والفنية التي تستغل لما يعده تدميراً لثقافته وقيمه فماذا يفعل إن رفضه الاقتصادي – مقاطعة بضائع بعض الدول – هو الموقف الوحيد – إلى حد ما – المتاح له . لأنه لا يستطيع ان يغير سياسة دولة عظمى أصبحت هي ذاتها غير قادرة على مواجهة هذا السيل من الانهيار الأخلاقي [25]. المواطن لا يستطيع أن يحطم جهاز التلفزيون . ولا أن يهمل (الموبايل) . ولا يهمل الانترنت ... الخ البعض سوف يرى في الارهاب حلاً . ولاسيما حين يتداخل ذلك مع الفقر والحرمان والديكتاتورية بل وحين تكون القيادة في المجتمع تدفع باتجاه الفعل الإرهابي وتسوّغه بأسم الدين .

خاتمة :

إن الزمن الذي أُطلقت فيه حملات مكافحة الإرهاب في ايطاليا بعد مقتل **الدرمورو** رئيس الوزراء الايطالي ، وفي ألمانيا بعد أن تعاظم نشاط (بادرماينهوف) وفي بريطانيا ضد البروتستانت .. الخ لم يعد الزمن نفسه . إنّه تهديد القاعدة باستخدام السلاح الكيماوي واستفادتها من التسهيلات التي وفرتها العولمة بسبب إنفتاح الحدود والأسواق ، مما سهّل عملية تحرك أفرادها من بلد لآخر . إلى جانب إن الجماعات الإرهابية أصبحت أكثر قدره على استقطاب العرب المقيمين في أوربا ، ووجود دول ضعيفة في الشرق الأوسط ، يجعل الصيغ التقليدية في الحرب ضد الإرهاب غير فعّالة وتحتاج إلى دراسة تقويمية شاملة .

إن أول جانب ينبغي التركيز عليه هو ذلك المتعلق بدحض الفكر الإرهابي وتفضح مصادره ومبرراته . إلى جانب استخدام القدرات التكنولوجية المتاحة لغلق منابر الدعاية التي تشحذ طاقات الشباب وتزجهم في أتون العنف الدموي .

ومن المهم جداً أ تتوقف الحملات المسيئة للإسلام لكي لا تشكّل مبرراً للفعل الارهابي فيعد دفاعا عن الإسلام .

الهوامش :

(1) جان بودريار وآخرون – ذهنية الإرهاب : لماذا يقاتلون بموتهم – ترجمة بسام حجار – الدار البيضاء – المركز الثقافي العربي – 2003 – عدة صفحات . وانظر أيضا بودريار وادغار موران – عنف العالم – ترجمة عزيز توما – سوريا – دار الحوار – 2005 – ص43 وما بعدها .

(2) سعيد شبار – المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية – سلسلة كتاب الأمة – العدد (78) 1421 قطر –ص 35 .

(3) جان فوانسوا دورتيه – معجم العلوم الإنسانية – ترجمة جورج كتوره – بيروت – المؤسسة الجامعة – 2011 – ص335 .

(4) الآن تورين – براديغما جديدة لفهم عالم اليوم – ترجمة جورج سليمان – بيروت المنظمة العربية للترجمة – 2011 – ص133–134 .

(5) د. السيد عليوه – إدارة الأزمات والكوارث – مخاطر العولمة والأرهاب الدولي – القاهرة – مركز القرار – 2004 – ص13 .

(6) د. خليل احمد خليل – معجم المصطلحات الاجتماعية – بيروت – دار الفكر – 1995 – ص33 .

(7) انتوني غدنز – عالم جامح – ترجمة عباس كاظم – بيروت – المركز الثقافي العربي – 2003 – ص49–50 .

(8) مؤسسة انزاك – التنمية في مجتمعات غير مستقرة – بيروت – 2006 – ص4 .

(9) احمد علي الخفاجي – الحركات الإسلامية المعاصرة والعنف – بغداد – 2011 (بدون جهة الطبع) ص29.

(10) أحمد علي الخفاجي – مصدر سابق – ص29 .

(11) حامد سالم الزيادي (الفريق الركن) مقاتلة الإرهاب في العراق – الحرب الجديدة – بغداد – دار الجواهري 2013 – ص10 .

(12) بودريار وآخرون – ذهنيه لإرهاب – مصدر سابق – ص27 .

(13) جيوفانا بورادوي – الإرهاب وإرث عصر التنوير هابر ماس ودريدا – دراسة في مجلة قضايا معاصرة – العدد (37–38) – 2008 – بغداد – مركز دراسات فلسفة الدين – ص252 .

(14) جيوفانا بورادوي – مصدر سابق – ص246 .

(15) د. خالص جلبي – الإسلام والعنف مصدر سابق – ص235–236 .

(16) هذا النص ورد في بحث من (46) صفحة لأبي حمزة البغدادي عنوانه (لماذا نقاتل ونقاتل من) وهو غير مؤرخ . ولكن يبدو أنه صدر حوالي 2005 (ينظر : عبد اللطيف الهرماسي – ظاهر التكفير في المجتمع الإسلامي من منظور العلوم الاجتماعية للأديان ، بيروت – الدار العربية – 2010 – ص51) .

(*) يقول رضوان السيد أن المؤسسة الدينية (السنية) ما كانت تستطيع ممارسة العنف أو الإقصاء أو القتل إلا مستعينة بالدولة وبذلك يكون العنف الاقصائي والالغائي دينياً لكنه ليس عنفا مقدساً . لكن من يسميهم (الاحيائيون) سوّغوا فكرة الجهاد بالداخل (دار الإسلام) والخارج (دار الحرب) على حد سواء . وبذلك صارت تهدد الإسلام نفسه (رضوان السيد وآخرون – التسامح وجذور اللاتسامح – بغداد – مركز دراسات فلسفة الدين – 2005 – ص153 و ص157).

(18) الهرماسي – مصدر سابق – ص51–52 .

(19) د. حسن حنفي – الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي – القاهرة – مكتبة الأسرة – 2012 – ص243 .

(20) د . محمد سعد أبو عامود – جماعات الإسلام السياسي والعنف في الوطن العربي – القاهرة – دار المعارف – 1992 – ص 82 – 83

(*) بدأ (الجهاد) في افغانستان بعد الغزو السوفيتي (ديسمبر/ كانون الاول 1979) وفي نهاية 1948 أسس الشيخ عبد الله عزام الاب الروحي للافغان العرب واسامة بن لادن (مكتب خدمات المجاهدين) وفي نهاية عام 1986 أسس بن لادن (بيت الانصار) ويعود أصل تسمية القاعدة الى عام 1988 ، بان تدفق الشباب العرب للمشاركة في الجهاد الافغاني ضد السوفيت فقام ابن لادن بترتيب سجلات لهم سميت سجلات القاعدة ، وكان تفجير مركز التجارة العالمي (1993) أول مؤشر على خطورة القاعدة التي امتدت خيوطها الى امريكا وبريطانيا وفي الدول العربية تحرك التنظيم في ليبيا ومصر واليمن والصومال ... الخ . ينظر: احمد علي الخفاجي – مصدر سابق ، ص159 وما بعداها.

(21) بودريار – مصدر سابق – ص 22 .

(22) زبغينو بريجنسكي – الفوضى – ترجمة مالك فاضل – عمارة الأهلية – 1998 – ص 182 – 183

(23) جوشوا كارلانير – عولمة القاعدة – إنقاذ الكوكب الأزرق – في : فرانك جي . لتشتنر وجون بولي – العولمة : الطوفان أم الإنقاذ – ترجمة فاضل جتكر – بيروت – المنظمة العربية للترجمة – 2004 – ص 77 وما بعدها

(24) د. فضل مصطفى النقيب – الحداثة مثقفو التبعية العربية الجديدة – بيروت – مركز الغد – 2007 – ص7 .

(25) انظر ما ذكره بريجنسكي – مصدر سابق – ص 96 وما بعدها

المصادر

1. احمد علي الخفاجي – الحركات الإسلامية المعاصرة والعنف – بغداد – 2011 (بدون جهة الطبع).
2. الآن تورين – براديغما جديدة لفهم عالم اليوم – ترجمة جورج سليمان – بيروت المنظمة العربية للترجمة – 2011 .
3. أنتوني غدنز – عالم جامح – ترجمة عباس كاظم ، بيروت – المركز الثقافي العربي – 2003 .
4. أولريش بيك – مجتمع المخاطرة – ترجمة جورج كتوره – بيروت – المكتبة الشرقية – 2009 .
5. بودريار وادغار موران – عنف العالم – ترجمة عزيز توما – سوريا – دار الحوار – 2005.
6. جان بودريار وآخرون – ذهنية الإرهاب : لماذا يقاتلون بموتهم – ترجمة بسام حجار – الدار البيضاء – المركز الثقافي العربي – 2003
7. جان فوانسوا دورتيه – معجم العلوم الإنسانية – ترجمة جورج كتوره – بيروت – المؤسسة الجامعة – 2011 .

8. جيوفانا بورادوي – الإرهاب وإرث عصر التنوير هابر ماس ودريدا – دراسة في مجلة قضايا معاصرة – العدد (37-38) – 2008 – بغداد – مركز دراسات فلسفة الدين .
9. حامد سالم الزيادي (الفريق الركن) مقاتلة الإرهاب في العراق – الحرب الجديدة – بغداد – دار الجواهري 2013 .
10. د . محمد سعد أبو عامود – جماعات الإسلام السياسي والعنف في الوطن العربي – القاهرة – دار المعارف – 1992 .
11. د. السيد عليوه – إدارة الأزمات والكوارث – مخاطر العولمة والأرهاب الدولي – القاهرة – مركز القرار – 2004 .
12. د. حسن حنفي – الدين والثقافة والسياسة في الوطن العربي – القاهرة – مكتبة الأسرة – 2012 .
13. د. خليل احمد خليل – معجم المصطلحات الاجتماعية – بيروت – دار الفكر – 1995.
14. د. فضل مصطفى النقيب – الحداثة مثقفو التبعية العربية الجديدة – بيروت – مركز الغد – 2007 .
15. رضوان السيد وآخرون – التسامح وجذور اللاتسامح – بغداد – مركز دراسات فلسفة الدين – 2005.
16. زبغينو بريجنكي – الفوضى – ترجمة مالك فاضل – عمارة الأهلية – 1998 .
17. سعيد شبار – المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية – سلسلة كتاب الأمة – العدد (78) 1421 قطر .
18. عبد اللطيف الهرماسي – ظاهر التكفير في المجتمع الإسلامي من منظور العلوم الاجتماعية للأديان ، بيروت – الدار العربية – 2010 .
19. فرانك جي . لتشتنر وجون بولي – العولمة : الطوفان أم الإنقاذ – ترجمة فاضل جتكر – بيروت – المنظمة العربية للترجمة – 2004 .
20. مؤسسة انزاك – التنمية في مجتمعات غير مستقرة – بيروت – 2006.